القضية الثانية[1]

المسلمات في أوربا

الانعتاق من الصورة السلبية ومفعول خيار المشاركة

- مدخل.
- المسلمات والقوالب النمطية.
- هل نجح العالم الإسلامي في معالجة الصورة؟
- من المسؤول عن تصحيح الصورة؟
- مسؤوليات المسلمات في أوربا . المشاركة مثالاً.
- إعادة تعريف جزئية.
- في مسألة اللباس.
- المقصد الجوهري للمشاركة ليس الصورة الشكلية.

(١) هذا الفصل هو فحوى محاضرة ألقيت في ندوة عُقدت في جامعة بلنسية (إسبانيا) بعنوان: "المرأة في الإسلام ووسائل الاتصال"، يومي ٨ و٩ أيار/ مايو ٢٠٠٨م.

مدخل

تعيش في أوربا ملايين، أو نحو عشرين مليوناً من المسلمات من أجيال شتى، ضمن واقع متنام ومتنوّع وحافل بالتحدِّيات أيضاً. ومع أنّ بعض الأقاليم الأوربية عرفت حضوراً تاريخياً للمسلمين وصولاً إلى الوقت الراهن، فإنّ واقع الوجود المسلم الحالي في أوربا يمثل تجربة جديدة من نوعها إلى حدّ كبير؛ أي إنّ خبراتها غير مسبوقة تقريباً سواء من جانب المسلمين والمسلمات، أم من جانب المجتمعات والبلدان في هذه القارّة.

وإزاء ذلك؛ ما زالت الصورة السلبية أو المشوّهة عن المرأة المسلمة في الذهنية، أو الذهنيات، العامة الأوربية، تستدعي مزيداً من النظر والتحليل والمعالجة، بل قد نكتشف مع تصاعد خطاب العداء للإسلام، أو "الإسلاموفوبيا"؛ أنّ النساء والفتيات المسلمات ينالهنّ قسط وافر من التشويه والاستهداف بالإساءة، إن لم يكنّ هنّ في محور تلك الحمى وفي صدارتها.

المسلمات والقوالب النمطية

كثيراً ما تستسهل الذهنيات العامة الأوربية فرز النساء والفتيات المسلمات ضمن قالبين اثنيْن، قلّما نجد ثالثاً لهما:

الأول . قالب المرأة المسلمة ذات الصورة المشوّهة:

فهي بموجبه: "متخلفة ورجعية"، "مغلّفة ومنغلقة" على ذاتها، وتمثل "لغزاً مستوراً"، عرضة لاضطهاد المجتمع "الذكوري"، "خاضعة ومستسلمة"، و"راضية بواقعها"، وتعيش "وعياً زائفاً". وعادة ما يجري استدعاء "الحجاب"، أو "غطاء الرأس"، للتعبير الاختزالي عن هذا القالب.

الثاني . قالب المرأة المسلمة "المنعتقة"

وهي بموجبه: "متحرِّرة"، "واعية بدورها"، تتقمّص تجربة الانعتاق

(Emancipation) الغربية وسائرة في طريق الحداثة الأوربية. ويجري استدعاء "السفور"، أو "الأزياء الغربية"، للتعبير الاختزالي عن هذا القالب.

هل نجح العالم الإسلامي في معالجة الصورة؟

يبدو واضحاً كيف اندفع عديد من الأطراف في العالم الإسلامي إلى التعامل مع هذه المعضلة، لإدراك هذه الأطراف أساساً أنّ **ملف المرأة يشغل موقعاً هاماً من قضية الصور الذهنية الغربية إذا ما تعلّق الأمر بالمسلمين والعرب.**

فليس مفاجئاً أن نكتشف لدى قطاعات الجمهور في بلدان أوربا رواج التصوّرات النمطية الحافلة بالسلبية، بشأن موقف الإسلام والثقافة الإسلامية من ملف المرأة. ومن الصعب القول: إنّ هناك تصوّراً واقعياً في تلك الذهنية بهذا الشأن. لقد أظهرت دراسة صدرت في عام ٢٠٠٥م، أنّ الرأي العام الغربي يميل بقوة إلى الاعتقاد بأنّ العرب المسلمين لا يوافقون على منح المرأة الحقوق المتساوية مع حقوق الرجل. وقد بلغت نسبة من يرون أنّ العرب يؤيّدون منح المرأة هذه الحقوق في بلد كألمانيا ١٤ في المئة فقط، في حين يبلغ المعدل العام المسجل بين الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وهولندا وألمانيا ٢٥ في المئة لا أكثر[١].

صحيحٌ أنّ الأوضاع غير المريحة، أو ربما المزرية أحياناً، التي تعيشها المرأة في مناطق من العالم الإسلامي لا يمكن التعمية عليها، إلّا أنّ انتزاع ذلك من سياقه وتركيب جزئيات غير منسجمة حوله، ليس بالخيار المقبول. ولعلّ جولةً واحدةً على متاجر الكتب في أوربا، تتيح العثور على أعداد متزايدة من العناوين التي تتمحور حول هذه القضية. وعلى سبيل المثال؛ عبّرت الرواية المثيرة للجدل "ليس من دون ابنتي" [٢] لبيتي محمودي(Betty Mahmoody)

---

(1) Western Perception of Islam and Muslims - A Study of Public Opinion and the Role of the Media in the United States and Western Europe, Kuwait, 2001, p. 46.

(2) Mahmoody, Betty: Not Without my Daughter, New York, 1987.

(بيعت منها ثلاثة ملايين نسخة في ألمانيا وحدها) عن هذا المنحى، لكنّ المؤشِّرات المؤسفة في هذا الجانب لم تبدأ مع تلك الرواية، وهي - كما نجد - ما زالت تتفاقم وتشهد زخماً قياسياً.

وهنا؛ لنلاحظ كيف تصرّفت تجارب العالم الإسلامي التي حاولت التعامل مع هذه المعضلة المتأصلة في الذهنيات العامة الغربية. فقد تم غالباً إبراز نماذج "تقدّميّة" تكاد تعبِّر عن "القالب النمطي الثاني"، والترويج لإصلاحات ما في قضية المرأة في المجتمعات الإسلامية، مع التعبير عن ذلك بتغييرات قانونية (كالحالتين التركية والتونسية، وأخيراً بعض المحاولات التشريعية المغربية مثالاً)، أو بمنجزات عددية (نسب تعليم الإناث، مثالاً)، أو بحضور دعائي (وزيرات، نائبات، متحدثات، مواد إعلامية، مثالاً). ونستطيع القول: **إنّ هدف الحصول على "إعجاب غربي" بهذه "الإنجازات" كان بادياً في صميم هذه التجارب، بشكل ربما غطّى على هدف حيازة رضا "المرأة الشرقية" ذاتها وإعجابها.**

مع ذلك، فمن التسرّع أن نتوقع أن تتم معالجة مشكلات الصورة المتعلقة بالمرأة المسلمة في العالم الإسلامي حالَ القيام بتلك الخطوات، بل ما هو أكثر منها؛ ذلك أنّ تلك الخطوات غالباً ما تُوضع في سياق "الالتحاق بالغرب"، واقتفاء أثره، وهو ما ينسجم مع تصوّر تقليدي متأصِّل لدى بعض النخب في العالم الغربي عن الأمم والشعوب والمجتمعات غير الغربية؛ باعتبارها إما أن تتقدّم لتتقمّص النموذج الغربي، تقمّصاً كاملاً أو تتكيّف معه على طريقتها، من جانب، وإما أن تبقى بالمقابل منغمسة في معاناتها الذاتية مع العجز والتخلّف، من جانب آخر. بالطبع، لا يوجد إجماع في المجتمعات الغربية على هذا التصوّر، كما أنّ هذا الانطباع يبدو كامناً، ويطرح ذاته بشكل غير واعٍ غالباً، وليس مدروساً على الأرجح.

والواقع أنّ تلك النظرة التقليدية، وإن لم تَعُد هي المهيمنة وحدها بالضرورة

- وعلى هذا النحو - في أوساط النخب الغربية، فإنّها تبدو مستقرّة دون شكوك جدِّيّة في الذهنيات العامة ضمن كثير من الأوساط في المجتمعات الأوربية، وهو ما يفرض وضع المثقفين والمصلحين في أوربا والغرب إجمالاً في ضوء مسؤولياتهم في المراجعة النقدية والتوعية الرشيدة بهذا الشأن. ومن هنا فإننا قد نكتشف مزيداً من المهام التي ينبغي أن تُدرَج على جدول أعمال المشاركة والحوار الداخلي في الفضاء الأوربي، وكذلك على جدول أعمال الحوار بين الحضارات والثقافات في عالمنا التعدُّدي.

من المسؤول عن تصحيح الصورة؟

يُستَحسن الوقوف التحليلي عند أبعاد غائرة في ملفّ الصورة الذهنية، وملابسات تشكّلها، على أمل الخروج باستنتاجات مفيدة. فمثلاً؛ لدى ملاحظة بعض سلوكيات تصحيح تلك الصورة التي يقوم بها بعض الأطراف في العالم الإسلامي، يتولّد الانطباع بأنّ ما كان مطلوباً أحياناً هو "مجرّد أن نبدو جيِّدين في عيون الآخرين"، مع إغفال حقيقة أنّ عيون الآخرين وأذهانهم لا تصلح لأن تكون مقياساً يُحتَكَم إليه، وإنما هناك حاجة إلى "معايير" يمكن الاستناد إليها في هذا الشأن.

ليس مطلوباً من الصورة أن تكون "واجهةً شكلية"، وإنما ينبغي أن تمثِّل تعبيراً عن حالة واقعية، أو على الأقل حالة أقرب للواقعية دونما تناقض أو اجتزاء مخلّ. هذا هو المطلب المؤهّل للاستمرار والصمود أمام اختبارات المعايشة، التي يُفترَض نظرياً أنها باتت متاحة أكثر من أيِّ وقت مضى في "عصر التواصل" الراهن. فالمطلوب صورةٌ واقعيةٌ إذن، ومن يرم ذلك فعليه أن يدرك أنّ الأمر يتعلّق بـ "المحتوى" إن لزم الأمر وليس بمجرّد "التغليف".

كذلك، فإنّ الوظيفة الأساس للصورة المستقرّة في الوعي، هي أن تعين على الفهم، وأن تُيَسِّر سبل التفاهم، وأن تهيِّئ فرص التواصل السليم. أي إنّ المرجوّ أيضاً هو قطع الطريق على سوء الفهم، أو ما قد يترتب من تداعيات سلبية على

التصوّرات المشوّشة من أفعال أو أحكام أو أقوال، ما دام أنّ "الحكم على الشيء فرع عن تصوّره".

وما يجدر قوله أيضاً أنّ الباعث على الاكتراث بالصورة لا ينبغي أن يقتصر على مجرّد التوجّه إلى "تصحيحها" أو "تعديل" بعض جوانبها غير المريحة، وإنما، وربما من باب أوْلى، إدراك المزيد من الجوانب التي تقتضي المعالجة الفعلية إن لزم، لا الشكلية وحسب، وتحديد الأدوار التي يستلزمها ذلك. فهنا يمكن للصورة أن تكون مؤشِّراً مساعداً لاكتشاف مكامن خلل محتملة في "فضائنا وفي فضاء الآخرين"، "وأيّ الناس تصفو مشاربه؟!" كما قال الشاعر العربي.

معرفة "الآخر" ومفاهيمه، وإدراك خلفياته التي يصدر عنها، مطلب لا غنى عنه في مسعى تعرّف صورة ما تشكّلت لديه، وهو ما يسري أيضاً على تتبّع صورة المرأة المسلمة في الذهنيات العامة الأوربية.

ولذا، فقد لا تكون صورة المرأة المسلمة فيما يمكن أن نسميه مجازاً "الوعي الجمعي الأوربي"، أحياناً وضمن بعض وجوهها أو تجلّياتها، سوى "التفسير الأوربي للمرأة المسلمة"، أو هي على نحو أدق، تلك الانطباعات المستقاة من "الخبرات الأوربية مع الإسلام والمسلمين والثقافة الإسلامية". ويأتي هذا التقدير مدخلاً لإدراك أنّ أيّ تعديل منشود في جوانب بعيْنها من هذه الصورة قد لا يقع فقط في نطاق المعني بالصورة (النساء والفتيات المسلمات) بالضرورة؛ بل قد يتأتّى أيضاً عبر جهد مطلوب ضمن خانة من تشكّلت لديهم التصوّرات والانطباعات (فئات الجمهور الذي يحمل الصورة الذهنية) بمواقفهم وتصوّراتهم ومعلوماتهم ومعايشاتهم وخبراتهم.

ولا تغيب عن الأذهان هنا بعض الصور النمطية الرائجة في الذهنيات العامة الغربية، من قبيل المَيْل إلى اعتبار أنّ الإسلام يشكِّل جوانب حياة المسلمين كافة أو معظمها. وهكذا، يتم استسهال الافتراض بأنّ سلوك المسلم مرتبط

تلقائياً بدينه، وكذلك الأمر بشأن السلوك الجمعي للمجتمعات والدول في العالم الإسلامي الذي كثيراً ما يتمّ في عديد من الأوساط الغربية إخضاعه لتفسيرات تُحال إلى الدين أو الثقافة الدينية أو الموروث الذاتي، بشكل مباشر أو غير مباشر، في حين يجري إسقاط الأمر ذاته أحياناً على واقع الوجود المسلم في أوربا كذلك.

ولكن في واقع الأمر يمكن العثور هنا على مفارقة أعمق؛ **فمظاهر التخلف والجوانب السلبية هي التي تخضع أكثر من غيرها لهذا المنطق، في حين تُعزَى النجاحات والمكتسبات، في الأساس، إلى أبعاد خارجية؛** (المؤثر الغربي والمعايشة الأوربية ومفعول الاندماج أو الذوبان، مثلاً)، **أو مادِّية؛** (كالوفرة المادية الناجمة عن النفط، أو مزايا الموقع الجغرافي، مثلاً) .**وفي حالة النساء والفتيات المسلمات كثيراً ما يُعزَى الإنجاز و"الانعتاق" و"التحرّر" إلى التأثر بالغرب أو اللحاق بأوربا، وفي حالة الواقع الأوربي إلى "الاندماج" الذي قد يُقصد به أحياناً الذوبان.**

يتضح بذلك أنّ صورة المرأة المسلمة لدى "الآخر" لا تصنعها هي (مع مجتمعها وثقافتها) بالكامل، بل بوسعها على الأكثر أن تؤثِّر فيها، أو ربما يكون بوسعها السعي لتشكيل بعض مكوِّناتها بالإيجاب أو السلب، **وإنّ المشاركة الفاعلة تبرز هنا باعتبارها أحد المداخل الهامّة للتطوير الإيجابي في هذا الصدد. والمثير أنّ تلك الصورة تبقى خاضعة لوعي الجمهور (الذي يحملها في ذهنه) بنفسه وبمَن حولَه في مجتمعه والعالم؛ خضوعاً قد لا يقلّ أحياناً عن انطباعها بالواقع الذي يُفترَض أنها استُلّت منه.** فصورة المرأة المسلمة في المجتمعات الأوربية تبقى متأثرة أيضاً بخصوصيات هذه المجتمعات، كذاكرتها التاريخية وخلفياتها الفلسفية، وأيضاً بملابسات نظرة المجتمعات للمرأة عامّة، وللمرأة المسلمة خاصة، **وإنّ معالجة هذه الخلفيات والخصوصيات والملابسات تبقى بكل تأكيد من القضايا الهامّة الموضوعة على برنامج (أجندة) المشاركة والتفاعل بالنسبة إلى النساء والفتيات المسلمات والحضور المسلم عموماً.**

إنّ التحدي الأساس الذي ينبغي أن يحظى بالاهتمام في هذا الشأن، هو تعزيز مفهوم الحقّ في الاختلاف، والوعي بالتنوّع في عالمنا ومجتمعاتنا الإنسانية، وهو ما سينعكس بالتأكيد بشكل إيجابي على النظرة إلى المرأة، مسلمة كانت أم غير مسلمة.

مسؤوليات النساء والفتيات المسلمات في أوربا ـ المشاركة مثالاً

في كل الأحوال، فإنّ النساء والفتيات المسلمات عندما يمارسن المشاركة المجتمعية بشكل فاعل في أوربا، فإنّ من شأنهن أن يساهمن في تفكيك الصورة النمطيّة المخصصة لهن، علاوة على كل المقاصد والأهداف المنشودة من تلك المشاركة.

إلّا أنه ينبغي أن يكون واضحاً أنّ **هذا التفكيك للصورة النمطية ليس بالمهمة السهلة، ومن المُستبعَد إتمام عملية التفكيك بالكامل**، لكنّ الإضافة النوعية التي بوسع النساء والفتيات المسلمات الإتيان بها في هذا الشأن تأتي أساساً من ثلاثة عوامل:

الأول ـ الخروج على القوالب النمطية المعدّة للنساء والفتيات المسلمات في الذهنيات الأوربية التقليدية، فهنّ في مشاركتهنّ لا يتوافقن مع أيٍّ من القالبيْن؛ الأوّل (قالب المرأة المسلمة ذات الصورة المشوّهة)، أو الثاني (قالب المرأة المسلمة "المنعتقة"). إذ إنهنّ قد يكنّ حريصات على الالتزام بدينهنّ وعلى المشاركة بفعالية في آن، فبعضهنّ قد يظهرن "محجّبات"، ويرتدين "غطاء الرأس"، ويتحقّق الجمهور من أنهنّ متفاعلات إيجابياً وغير منغلقات كذلك. هنّ "لم يخرجن من الذات"، ولم يتقمّصن ما يمكن تسميته، مجازاً وبتحفّظ شديد، "هيْئة غيرهن"، ولكنّهن تفاعلن مع هويّاتهنّ وتجاربهنّ التاريخية، وانفتحن على تجارب "الأخريات" أيضاً، واستفدن من البيئة المحيطة كذلك.

الثاني ـ الجانب الآخر من هذه الإضافة التي تحققها مشاركة النساء والفتيات

المسلمات مجتمعياً في أوربا؛ **أنّ الذهنيات الأوربية التقليدية لم تكن تفترض وجود المرأة المسلمة في الفضاء المجتمعي الأوربي ذاته، أو في صميم الحضور المجتمعي في غرب أوربا ووسطها.** فصورة المرأة المسلمة النمطية تلك ظلّت جزءاً من صورة "مُستطرَفة" (exotic) مرتبطة بعالم "ما وراء البحار" (overseas). و"المفاجأة" التي لا تتماشى مع تلك الانطباعات الراسخة، أنّ هناك نساء وفتيات مسلمات "محجّبات" أو بـ"أغطية رؤوس" في "مجتمعاتنا وأحيائنا". هذا من شأنه ربما أن يمثِّل **فرصة للتواصل المتبادل، ولمعايشة واقع ما**، بعيداً عن الصور المنقولة والمشوّهة؛ ولكنه يمثل في الوقت ذاته **مخزوناً لترسيخ الصور النمطية حتى داخل الفضاء المجتمعي الواحد**، وإتاحة الفرص لمثيري الضغائن المتبادلة ومروِّجي الأحقاد العنصرية والمحرِّضين على كراهية الإسلام والمسلمين، كي يجدوا مادة للتناول. لعلّ ذلك يعكس بحدِّ ذاته جانباً من الفرص والتحديات، وكذلك المكتسبات، وجوانب المخاطرة القائمة، ويوضِّح مرة أخرى أنّ المرأة المسلمة الأوربية تقع في البؤرة والصدارة، وفي مرمى الاستهداف والضغوط أيضاً. إذ يمكن لملابسها عندما تختار ارتداءها أن تتحوّل إلى مادّة متجدِّدة للجدل السياسي ونقاش البرلمانات ومداولات السياسيين، كما في فرنسا وألمانيا وهولندا والنرويج وسويسرا حتى بريطانيا وغيرها، بل يمكن خوض الانتخابات تحت لافتات التشهير بالنساء والفتيات المسلمات والإساءة إليهنّ، كما يفعل حزب الحرية النمساوي (FPÖ) مثلاً بدأب منذ سنة **٢٠٠٥**م.

الثالث. أنّ المشاركة بوسعها أن تعين على تحسين أوضاع النساء والفتيات المسلمات في أوربا، والمساهمة في معالجة بعض جوانب القصور في واقعهنّ الذاتي وظروفهنّ الموضوعية. إنّ الحضور الفاعل والانهماك في المشاركة يُطلقان الفرص، ويُنضجان التجارب، ويساعدان على توفير الحلول المرتكزة في الأساس إلى تصوّرات وجهود ذاتية، وليست مصمّمة أو مُدارة بمعزل عن

حضور النساء والفتيات المعنيّات. ومن شأن هذا أن ينمّي من تقدير المرأة المسلمة لذاتها وتصوّرها لإمكاناتها ولخياراتها أيضاً، كما قد يخدم الصورة العامة للنساء والفتيات المسلمات في مجتمعاتهنّ. كما أنّ المشاركة الإيجابية تعني بناء الجسور، وتعزيز تماسك المسلمات ضمن النسيج المجتمعي العام، وهو ما يمكن الافتراض بأنه يحمل انعكاسات إيجابية على صورتهنّ، دون أن يكون المقصود بالطبع الانشغال بحيازة "قبول الآخر" وكسب "رضاه".

إعادة تعريف جزئية

إنّ حضور المسلمات في المجتمعات الأوربية، وإقبالهنّ على المشاركة المجتمعية والسياسية، قد يكون لهما أثرهما الذي يعين على إخراج صورتهنّ النمطية من القالب التقليدي المعدّ لهنّ غالباً في الذهنية العامّة الأوربية.

فمن سيجرؤ على ربط المرأة المسلمة التي تشارك بفعالية في مجتمعها، بتلك الصورة المشوّهة الرائجة في المخيِّلات الشعبية الأوربية، وفي بعض الرسوم والصور المجتزأة التي تزعم التعبير عن المسلمات في وسائل الإعلام؟!.

ومن المتوقّع وفقاً لذلك أن يخضع "غطاء الرأس" أو "الحجاب" لعملية "إعادة تعريف جزئية" (ليس بالضرورة أن تكون إيجابية دوماً) في الذهنيات العامّة الأوربية، في الوقت الذي يرى فيه الجمهور أنّ المرأة "المحجّبة" موجودة بالفعل في منصّة الحديث أو في حلبة المشاركة أو في ميادين الإنجاز والفعل المؤثر، وقادرة أيضاً على خوض المنافسة. إنها عملية معايشة مع "خبرات جديدة" تتطلّب صبراً، حتى يتحوّل ما يبدو "استثناء" إلى تصوّر واقعي.

فالرسالة المهمّة الكامنة في ثنايا هذا المشهد؛ أنه **بوسع المسلمات المضيّ إلى الأمام دون الخروج من الذات، بل بتفاعل إيجابي مع بيئتهنّ.**

في مسألة اللباس

غالباً ما تأتي النظرة إلى اللباس على أنه "مؤشِّر" واضح وملموس ويشي

بكثير من الرسائل، لكونه "وسيطاً يحمل رسائل ضمنية"، بوسعها أن تتسلّل إلى أعماق الوعي، وليس مجرد "خيوط منسوجة".

ومن المؤسف والمقلق في آنٍ أن تجري عملية "**إعادة التعريف**" لحضور المسلمات في مجتمعهنّ باللباس الذي يخترنه، في اتجاهات ذات منحى إقصائي إلى حدّ الحرمان من التعليم أو الوظيفة العامة، بذرائع تعسّفية من قبيل الادعاء بأنّ "غطاء الرأس" هو "رمز ديني، أو حتى سياسي". **وما يستدعي التساؤل هنا أيضاً؛ إن كان ضرباً من التفرقة الذميمة، اعتبارُ لباس بعيْنه دون غيره من الألبسة حاملاً لرسائل رمزية، فهل يمكن في الأساس تحييد أي لباس كان عن قدرة الإيحاء الرمزي؟.**

وعند العودة إلى جذور المسألة لا يمكن إغفال أنّ صورة المسلمات في العالم الإسلامي، وفي أوربا أيضاً؛ كثيراً ما تخضع في الذهنيات العامة الأوربية لنزعة "التمركز الأوربي حول الذات" (Eurocentricity)، بحيث جرى وفق تلك النزعة إسقاط التجربة الأوربية بشكل تعسفي على غيرها من التجارب. فملف المرأة في العالم الإسلامي يتمّ - في التصوّرات الغربية الرائجة - وضعه في سياق موازٍ لتجربة إقصاء النساء في التاريخ الأوربي والغربي من المساهمة في الفعل المجتمعي وحرمانها من حقوقها. ولذا؛ فمما قد يشكّل مفاجأة لكثير من الأوربيين، أن يدركوا أنّ المسلمين كانت لديهم عالمات في شؤون الدين والدنيا مثلاً، أو قيادات نسوية في المجتمعات المحلية في العصر الوسيط، وغير ذلك من صور المشاركة المجتمعية المتجددة التي يبدو بعضها لافتاً للانتباه بمعايير القرن الحادي والعشرين.

المقصد الجوهري من المشاركة ليس الصورة الشكلية

على من يتناول مشاركة أي فئة مجتمعية ما ألّا يُغفل أنّ هذه المشاركة إن كانت فاعلة حقاً؛ يغدو المُنتظر منها أن تُحدِث فارقاً في واقع ما، أي أن تساهم

في التطوير أو التغيير في هذا المسار أو ذاك. ولا يمكن، من باب الإنصاف، أن تكون مشاركات المسلمات في الواقع الأوربي استثناءً من ذلك. بمعنى أنّ مشاركاتهنّ لا يُرجَى منها أن تكون استنساخاً تلقائياً أو تقمّصاً سلبياً لتجارب غيرهنّ ومضامينها، سواء على مستوى التطلّعات أو الأداء أو الخطاب، مهما جرى التعويل على القواسم المشتركة والفضاءات الجامعة بين تجارب المشاركة المتنوِّعة.

ربما يقود هذا إلى استنتاج هام؛ أنه **من المتوقع، أو المرجوّ على الأقل؛ أن تحقِّق المسلمات "إضافات" ما، في سياق مشاركاتهن،** وأن تكون تلك الإضافات ملموسة في واقعهنّ المباشر، وفي واقع الوجود المسلم الأوربي عامة، وكذلك في الفضاء المجتمعيِّ العامّ ككلّ أو في بعض مساراته على وجه الخصوص، وهو ما بوسعه أن يكون ملموساً في المستويات المحلية بالذات.

وانطلاقاً من مبادئ شتى، من بينها المساواة وتكافؤ الفرص؛ ينبغي أن تكون الآفاق مفتوحة أمام هذه "الإضافات"، بحيث تُتاح للمسلمات الأوربيات أيضاً فرصة المساهمة في "إحداث الفارق" في النظم والتشريعات، وفي الممارسات والتطبيقات، أو في مسارات الحياة العملية، وحتى مجالات الثقافة والفكر، والإعلام والتعليم، وغيرها. ومع الحذر من تثبيت الصور النمطية السلبية المتعلقة بجهد المرأة المنزلي، لا يبدو من القسط إخراج دور الأمومة السامي والجهد التربوي في نطاق الأسرة والعمل المنزلي اليومي، من نطاق الجهد المجتمعي للمسلمات أو لغيرهنّ، لأنّ **المشاركة لا تبدأ عند باب المنزل ولا تنتهي عنده،** مهما تمّ تجاهل هذه المساهمات في بعض مقولات الحداثة الأوربية التي باتت موضع شكّ أكثر من أيّ وقت مضى.